

أزمة الأديب في المجتمع

بقلم محيي الدين محمد

الانفصال عن وضع ما ، لاتخاذ رأي فيه . . (١) «
تفترق الحرية الداخلية هنا ، عن محدودية الحرية
العامة التي تسمح بها السلطات والتقاليد ووعي الناس ،
بل ويصبح من المحتم ان يصطدم الأثنان ، وان ينشأ تبعاً
لذلك تحول فكري جديد : حرية الكاتب في ممارسة ووعي
نظيف وسلوك ناقد وجريء ، وحرية السلطة في الحد
من حرية الكاتب . .

الحرية الداخلية هي التمرد على الأوضاع الجامدة التي
تحاول تكميم فم الكاتب بالارهاب ، وبالسنج ، والتشريد
والتنكيل مرة ، والأغراء والأغواء مرة أخرى ، والانتقادات للسلطة
حيث لا اغواء ولا تهديد ، الاضياغ الشخصية مسرة
ثالثة ، حرية الأديب الداخلية هي اولا ، الرفض التلقائي
لكل دعوة بالانتصاح ، وهي ثانيا ، الالتزام الواعي بقضية
الشعب ، وهي ثالثا ، الاعلان عن المساويء والشورور ،
وطرح الجواب بكافة الطرق المشروعة وغير المشروعة ،
بصرف النظر عن الوضع النفسي والاجتماعي .

فهل يستطيع الأديب حقاً ان يتجاوز عن سوء الوضعين
الاجتماعي والفكري ، ليعان - رغم تعسف السلطة - عن
قضية يراها أخطر القضايا وأشدّها اهمية ، وتراها السلطة
اشد القضايا بلبلة وابتعائاً على الارتباك . ؟ هل يمكن
للأديب ان ينتج أعمالاً فنية على مستوى رائع وجديد وعميق
اذا كانت حياته الاجتماعية أقل بكثير عن المتوسط . ؟!

لاشك ان الأديب بشر كالتناس ، يود ان يكون سعيداً ،
ويود ان يمتلك تليفوناً خاصاً ، وجهازاً للتليفزيون ، وحجرة
استحمام من القيشاني الاصيلي ، ويود ان يمتلك عربة
جميلة ، وان يتسع له الوقت لكي يكتب ويقدم شيئاً
مرموقاً ، والأديب يعلم ان وقته مضيع بين العمل الخارجي
الذي يستنزف طاقاته البدنية والفكرية ، وبين قراءاته
الخاصة ، وهو يدرك جيداً مدى طغيان العمل واكل العيش ،
على انتاجه الخاص ، وهو واثق تماماً انه سيكون أغزر
أنتاجاً وأعمق فكراً في المستقبل ، لو امكن لجهة ما ان تتولى
عنه عبء حياته الخاصة ، بعملها ومسئولياتها ، وهو
يحلم دوماً بهذا « السلطان » العادل الذي عليه ان يحيي
مواته ، وان يقدم للعالم امكانياته الفنية الرائدة في أعماقه
. . ولا شك ان هذا الحلم جميل ورائع ، ولكننا لم ننس
اننا حلمنا قبل ذلك ، وطيلة التاريخ بالمدن الفاضلة
والبيوتوبيات ، وانتهينا الى قرار صعب بالنسبة لكل تفكير
مثالي ومجرد . .

بيد ان سؤالاً وحيداً يثار هنا ، سؤالاً وحيداً وعلى غاية
من الاهمية : اذا افترضنا ان الأديب يعاني بؤس حياة

شيطان مزعجان ومروعان يظن الأديب انهما يحطمان
وجوده ، ويمزقانه أشلاء . . هما وطأة الوضع الاجتماعي ،
والشعور العنيف بالاحرية . .

الاثنان متداخلان ومتناقضان - متداخلان بمعنى انهما
لازمان معا لوجود الكاتب القوي المتفرغ الكثير ، ومتناقضان
بمعنى ان وطأة الوضع الاجتماعي لا تؤثر في الأديب الا من
داخله « وسوف نلاحظ ان هذا المعنى شكلي محض » ، في
حين ان الاحرية ، وضع تختاره الدولة كي تجمد الثورة ،
وتخمد النقد والمعارضة ، وهي لا تؤثر في الأديب الا من
خارج ، أي في اللحظة التي يستحيل فيها وعيه الى نشاط
اجتماعي غايته الوصول الى الآخرين والتأثير فيهم . . وكل
مظان الأديب بفضاعة هذين العاملين وشدة تأثيرهما المدمر
راجعة الى انه يتعمد الخلط فيضع دلالة كل منهما في
مكان الاخرى : أي انه يظن الاحرية وضعا داخليا ، وان
الحالة الاجتماعية تؤثر في خارج الأديب ، أي من حيث
يلتقي بالآخرين ، كتابة وخطابة . .

والامر الحقيقي هو ان العاملين يؤثران داخليا وخارجيا
نفسيا وسلوكيا ، ولكنهما يختلفان ويتباعدان في لحظة واحدة
هي اللحظة التي يقرر فيها الأديب ان عزلته لم تصبح ملكه
وان عليه عبء انقاذ البشر الذين يعانون معاناة نفسها .

ليست الحرية وضعا خارجيا محضاً ، وليس الوضع
الاجتماعي كذلك ، اذ يظل بإمكان الكاتب الحر دوماً ان
يمارس حريته ، وان يرفض الحواجز والأطر ومغريات
السلطة ، ويظل بإمكانه ايضا ان يلقي حكاية الظروف السيئة
التي يعاني منها ، ويعاني حيله منها ، وان يوصل الرسالة
التي ينبغي عليه ان يوصلها . .

فأية قوة هي هذه التي تحقق تلك الفورة الداخلية
العارمة ، في حين يظل الخارج باستمرار ، ديمومة متصلة
من عمليات الكبت لقوى الأديب ونشاطاته . ؟ أي شيء هو
هذا الميزان الذهبي الذي لا يتأثر بالوضع الاجتماعي ، ولا
يتأثر بالطغيان ؟!

ان الخارج لا يعطل الأديب نهائياً ، كما ان الداخل لا ينقد
الأديب نهائياً ، وليس خطأ ان نظن ان مقداراً مناسباً
من الحرية الخارجية ، ومقداراً مناسباً من الدخل المادي ،
يهيئان للأديب ارضية قوية وخصبة . لكن المطلوب ليس
معرفة الظروف المثالية التي يتمكن الأديب ضمنها من
الانتاج ، انما السؤال هو : هل يستطيع الأديب ان يمارس
التزامه ، بدون خيارات ، في ارض لاتحكمها الحرية ، وفي
مستوى مادي تعس للغاية . ؟ هل يستطيع الأديب ان
يتجاوز ظروفه ؟!

لقد عينا حتى الان شيتين منفصلين وقلنا انهما يسمان
وجود الأديب : الاحرية ، وسوء الوضع الاجتماعي . . .
ولكنهما - بعد السؤال السابق - يصبحان في الحقيقة
شيئاً واحداً . . فما هي الحرية اذا لم تكن « القدرة على

(١) جان بول سارتر « المذهب المادي والثورة » ص ٢٢ - ترجمة
سامي الدروبي وجمال الاناسي - منشورات دار البقعة العربية للتأليف
والترجمة والنشر .

الخاص : انا حر .. ذلك صحيح ، ولكنني لست حسرا في تعذيب اخوتي وأسرتي .. وما ذنبها .. حتى اجر عليها الخراب والتشريد ؟!

وبعبارة اخرى ، هل تستحق هذه القضية ، كل هذا الاستشهاد ؟

نلاحظ ان الامر قد تحول هنا الى مسألة اخرى اخلاقية تماما ، وذلك لان هذا الاديبي في الحقيقة ليس حرا ، مادام عبء الوضع اشد عليه وطأة من شعوره بالتزامه .. طريقان لا ثالث لهما يتألقان في ذهن هذا الاديبي ، أحدهما هو : أسكت ، فليست بطلا .. والاخر : أتكلم ، كيما احقق حريتي . وهذا المثال نفسه يمكن تطبيقه بقليل من التحريف لو اردنا طرح مسألة سوء الوضع الاجتماعي للاديبي ، والمثالان يؤديان الى موقف واحد يعلن عنه الاديبي ، وهو : هناك .. في الخارج ، تقع قوة اخرى اكثر اعتوا تمنعني من الكتابة ومن الانتاج ، هي حكم السلطان في موقف ، والرغبة بالسعادة والامان وطرح الفقر جانبا ، في الموقف الاخر .. فما معنى ان يتجاوز الاديبي عن هذه القوة ، وما الذي يؤدي اليه هذا التجاوز الذي يملك في شكله الفردي ، ملامح الفشامة والاستشهاد ؟!

قد يلاحظ الانسان العادي في مدينة مثل « هاكاوا » سوء الوضع السياسي والاجتماعي بقليل من الفطنة ، وقد يتكلم أحيانا عن ضرورة التغيير ، ولكنه ليس ملتزما بذلك ، اذ ليس هناك فارق سلوكي مؤكد وهام بين من يعرف او يجهل ، فهو في الحالين ليس قابلا ان يخلق من قضية الحرية معنى لوجوده .. واذا لم يحدث ذلك النوع من السوق والدفع الفكريين ، فقد تظل الرغبة في التغيير ، مجرد أمنية حالة في ذهن الرجل العادي ، مهما كان الضغط السياسي والاجتماعي مروعا « ولا بد ان نلاحظ ان الثورة اذا لم يتبها لها الذهن القائد ، او الانسان البطل لمثال ، لا بد ان تنتكس دفعة واحدة وتموت » .

الاديبي طاقة ذات حدين ، أحدهما مغروس في الواقع الانبي ، والاخر مدفون في المستقبل . فعلى اساس من هذه النظرة المزدوجة ، والحادثة من التطابق الذهني للمثال « المستقبل » على الراهن « الواقع » ، يحاول الاديبي باقصى ما تسعه طاقاته ان يغير ويبدل ويطور .

هذه الرؤية الكاشفة ليست التراما بمصطلحه اللغوي انما هي ارتباط ميكانيكي بالوضع ، كما ترتبط الاقمار التابعة ، بالافلاك العظيمة .. ويستحيل ان يتبها هذا الرباط او يتمزق في أي ظرف من الظروف ، وتحت أي لون من ألوان الضغوط والمذابات ، فالاديبي مدفوع الى ان ينتج وان يعترف وان يعارض سلوكا واعيا ، مدفوع الى ذلك باكثر من سبب ، فما الذي يلزمه في الحقيقة بالكتابة وماذا يعني بها ، ان لم يكن واعيا ان كتابته مقصود بها تغيير أذهان الاخرين ، التمهيد بتطورهم ؟

واذا كان الوضع بنوعيه : الفقر المادي ، والحالة الفكرية في الوطن ، يسهم في تكبيل الاديبي وعرقلة فكره ، فان حريته الخاصة تدفمه الى التخلص من كل هذه الروابط والسلاسل ، وتؤلف حالة نفسية خاصة ، تملو - مؤقتا - على الواقع الاجتماعي ، بل وتسلبه وجوده ، وتعطيه هذه الزبة النادرة وهي القدرة على تفتيت الوضع من جميع جوانبه ، وتسليمه نظيفا وشيقا ومعقولا الى الاخرين .. فالالتزام هنا عملية هي غاية ما يصل اليه الاستغناء عن

احتمالية شديدة الوطأة ، مع شعوره الجارف بالحرمان من كافة المتع والسعادات الصغيرة التي يمارسها الاثرياء والسادة ، فهل نغفر له صمته وسكوته ، او هل نستطيع ان نوافق على تبريره الذي يسوقه ، وخلصته ان الوضع يطحنه ويخلخل التزاماته ، وان عليه ان يبحث عن مستوى ارقى من حياته الراهنة ؟!

سوف تقرب الامر بمثال ملائم : مدينة اسمها « هاكاوا » يحكمها سلطان باطش لا يعرف العدل ولا يفهم حرية التعبير ، ولا يسلم بجدوى الفن والكلمة والفكر .. يعيش في هذه المدينة اديبي شاب . غير متزوج ، يعمل في مطحن للفلال ، من السادسة صباحا حتى الرابعة مساء . توفي ابوه ، وهو يعول أسرته البالغة ثمانية أشخاص ، نصفهم في المدرسة ، والنصف الاخر مقيم دائم في المنزل .. هذا الاديبي يلاحظ الوضع : انه يقرأ الجرائد ، ويحدث الناس ، ويدرس الظواهر والخبايا ، ويفطن الى الامور ، وقد توصل بعد كل ذلك الى قرار بشأن هذا السلطان ، وبشأن النظام الذي يحكم وطنه .. انه في هذه اللحظة ، أي في لحظة وعيه وأدراكه ، ليس حرا بعد ، فالحرية الداخلية ليست نمطا في التفكير .. ابدا ، انها خطوة ضرورية الى خارج .. أي انها لا تكون كذلك الا في اللحظة التي يشاء فيها هذا الاديبي ان يغير ما يقهره .. وانه ليعلم تماما بكل ما يتبع حركته الى الخارج من شرور ، فلا اقل من السجن والتشريد ، والبطش بالاسرة ، والعداب ، ثم الموت ...

في مثل هذه الظروف ، يمكن للاديبي ان يحتج بوضعه

الى العرب في كل مكان ..
ليبتعرفوا بحق الى الجزائر المجاهدة
ويتبعوا مراحل كفاحها البطولي :

نقدم هذا الكتاب
الجزائر العربية
ارض الكفاح المجيد
تأليف الدكتور : احسان محيى

اول كتاب يربطه قلم عربي ليعمل
الى القراء العرب اخبارا محمرا
الجزائريين الابطال الذي اثاروا
عجاب العالم باجمعه - مع مجموعة
كبيرة من الصور الرائعة التي لم تنشر بعد !

٣٥٠ صفحة من القطع الكبير ٤٠٠٠ ت.ك. ٥٠٠ ت.د
منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

اذ قد يكون لعبة من العاب النرد او الشطرنج ، و كرة القدم او مجرد ملاحظة الاخرين .
ولا ينبغي ان نظن حياد الذهن عملية ميكانيكية محضة ، انها مجرد امكانية موجودة ، يستحيل ان تمارس عملها اذا لم تنهيا الارادة اللازمة ، ووعي الكاتب بحريته الذاتية ..
لقد لاحظنا ان الذهن يحتوي امكانية ان يصبح حياديا بالنسبة للظروف التي يحيا فيها الكاتب ، ولكن الذهن هو مطية المشتغل بالنقد والدراسات والعلم ، فما هو حكم المدع الذي يشغل الذهن فيه وظيفة المنسق والمبوب والملاحظ فقط ؟

المفروض ان كتابة المدع انفعالية تقريبا ، مع قيمة دنيا للعقلانية والمنطق ، مهمتها ان تربط الظواهر ، وان ترتب الاحداث وان تعطى لحة الواقع .. والاتعمال حدث تابع باستمرار للظاهرة او الملاحظة الخارجية ، او الاستبطان الداخلي والتأمل ، وهو بتأثير من هذه التبعية اكثر اشتراكا بالواقع وبالظروف من العمل الذهني ، وبالرغم من ذلك لا يستطيع المدع الا ان يفرض وينتج ، لان فيضه يملك مقدارا اكبر واضخم من التلقائية والعفوية ، وهما يوازيان هنا القدرة على تخطي الظروف عند الدارس او الناقد ..
ففي انفس الظروف التي هيهاها مجتمع لانسان ، استطاع جوركي ودوستويفسكي وكافكا ورامبو وشكسبير ان يقدموا للعالم اروع واصفى واعمق الاعمال الفنية ، واستطاع ليرمونتوف ولوركا وميللر ، تحت اسوأ النماذج من الانظمة الحاكمة واشدها دكتاتورية وكرامية للفكر ان ينتجوا اعمالا مثل : بطل من هذا الزمان ، ماريانا بينيدا ، ساحرات سالم ..

الاديب مغموس في وسطه بكل مشاعره ، ولكنه ارقى من هذا الوسط بجزء من ذهنه . جزء شديد الراس ، وفائق الاهمية ، ومتخط دوما لكل ما من شأنه ان يعطل الملكات المخزنة في بقية الذهن او المشاعر ، واهل هذا الجزء ان يكون متصلا بالمثل في الانسان . هذا المثل الرائع والنادر الوجود .
اخيرا ..

ليست هناك قوة في الارض ، لا هي قوة الافراد ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، تستطيع ان تمنع الاديب من التعبير والقول ، وممارسة هذه العملية التي هي معنى وجوده ..
واذا استطاعت قوة ما ان تخرس الاديب ، فان ذلك يبقى جنبه الخاص ، مادام غير سجين بعد ، وغير ميت بعد ..

وسوف تظل « هاكاجاوا » مدينة ميتة ، اذا لم يتقدم ذلك الاديب الذي يعمل في مطحن الغلال ، ويكتب ويصارع ويعلن وينقب ويجوس ويكشف ويعزى كل مايقع تحت بصره وفي مستوى ذهنه من مخازر والام وشكاوي ..
فهكذا فقط تستطيع هذه المدينة ان تقول : ها انذا انطور واحيا واتقدم ..

محيي الدين محمد

القاهرة

فندق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بإدارة: حلمي المباشر

ازمة الاديب في المجتمع

- تنمة المنشور على الصفحة ٦ -

المطالب الحقيرة للجسد والشعور ، وغاية مايعبر عنه الفكر من لا مبالاة بالسلطة والتقاليد والاخلاق العامة . الالتزام معاناة وتعبير عن هذه المعاناة ، وتخلص منها في الوقت نفسه .

الذين يؤمنون ببطش الظروف بفكر الاديب ونشاطه الذهني ، يربطون بين حالة الفكر اثناء ممارسة التفكير في ظرف اجتماعي معين ، وبين تأثير ذلك في حالة الكتابة ، ويخلصون من ذلك الى استحالة ان يصبح الاديب محايدا - ذهنيا - عن الظرف الاجتماعي الذي يعيشه ، لان الذهن في الحالين هو عنصر الاشتراك . وذلك خطأ محض ، كما نتصور الذي يتنسم عبير وردة ، انه ممتنع مؤقتا عن التنفس ، في حين يدل واقع الامر ان العمليتين « التنفس - التنسم » مشتركتان ومتحدتان بالمعنى الظاهري ، لان الانف هو عنصر المشاركة ، مرتبطا بعملية دفع الهواء الى الداخل ، ومنفصلتان ايضا بمعنى ان بنية الظاهرتين مختلفتان . وهكذا بالنسبة الى ذهن الاديب ، فالواقع ان عملية التفكير يمكن ان تصبح حيادية تماما ، بمعنى انها تدرك فعلا ظروف الكاتب المادية والنفسية ، ولكنها ، اذ يستحيل عليها ان تظل مرتبطة في ديمومة متصلة بهذه الظروف ، تتخلى - مؤقتا - عنها لتمارس نشاطها الاخر . ويجب ان نلاحظ ان هذا النشاط الاخر ليس بالضرورة ادبا ونقدا ،

صدر حديثا عن :

دار الثقافة - بيروت

- ٥٠٠ ابن الرومي - روفون جست ترجمة الدكتور حسين نصار
- ٣٥٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة - فرنكلين اشد ترجمة مهيبه مالكي الدسوقي
- ٣٠٠ الادب المسرحي - للدكتور محمد كامل حسين
- ٥٠٠ اشعار الخليل - الحسين بن الضحاك - تحقيق عبد الستار فراج
- ٥٠٠ قصة قلب (ديوان شعر) - محمد احمد محجوب
- ٥٠٠ ديوان القطامي - تحقيق الدكتور ابراهيم السمراي واحمد مطلوب
- ٥٠٠ مضاهاة امثال كتاب كليله ودمنة بما اشبهها من اشعار العرب - تحقيق الدكتور محمد نجم
- ٣٠٠ ديوان الرصافي البلنسي - تحقيق الدكتور احسان عباس

تطلب هذه الكتب مع سواها من دار الثقافة ومكتبتها ص.ب ٥٤٣ - تلفون ٢٣٠٥٦١ - ميدان رياض الصلح